

قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث

@ 287 @ من الذي يقول : أمر الحديث عظيم ، وليس لمثلنا أن يفهمه ، فكيف يعمل به ؟
وجوابه بعد أن فرضنا موافقة فهمه لفهم ذلك العالم الذي يعتد بعلمه وفهمه بالإجماع ، أنه
إن كان المقصود بهذا تعظيم الحديث وتوقيره ؛ فالحديث أعظم وأجل ، لكن من جملة تعظيمه
وتوقيره أن يعمل به ، ويستعمل في مواده ، فإن ترك المبالاة به إهانة له ، نعوذ بالله منه
. وقد حصل فهمه على الوجه الذي هو مناط التكليف ، حيث وافق فهم ذلك العالم ؛ فترك
العمل بذلك الفهم لا يناسب التعظيم والإجلال ، فمقتضى التعظيم والإجلال الأخذ به ، لا يتركه !
وإن كان المقصود مجرد الرد عن نفسه بعد ظهور الحق ؛ فهذا لا يليق بشأن مسلم ، فإن الحق
أحق بالاتباع ، إذ لا يعلم ذلك الرجل أن الله عز وجل قد أقام برسوله الحجة على من هو أغبي
منه من المشركين الذين كانوا يعبدون الأجار ، وقد قال تعالى فيهم : (أولئك كالأنعام
بل هم أضل !) فهل أقام عليهم الحجة من غير فهم ، أو فهموا كلام رسول الله ؟ فإن فهم
هؤلاء الأغبياء ، فكيف لا يفهم المؤمن مع تأييد الله تعالى له بنور الإيمان ؟ وبعد هذا
فالقول بأنه لا يفهم قريب من إنكار البديهيات . وكثير ممن يعتذر بهذا الاعتذار يحض دروس
الحديث أو يدرس الحديث ! فلولا فهم أو أفهم ، كيف قرأ أو أقرأ ؟ فهل هذا إلا من باب
مخالفة القول بالفعل ؛ والاعتذار بأن ذلك الفهم ليس مناطاً للتكليف باطل ، إذ ليس الكتاب
والسنة إلا لذلك الفهم . فلا يجوز البحث عنهما بالنظر إلى المعاني التي لا يعمل بها ، كيف
وقد أنزل الله تعالى كتابه الشريف للعمل به ، وتعقل معانيه ، ثم أمر رسوله بالبيان للناس
عموماً فقال تعالى : (إنا أنزلناه قرآنا عربياً ، لعلكم تعقلون) وقال : (لتبين
للناس ما نزل إليهم) فكيف يقال : إن كلامه الذي هو بيان للناس غير مفهوم لهم إلا لواحد
منهم ؟ بل في هذا الوقت ليس مفهوماً لأحد بناء على زعمهم أنه لا مجتهد في الدنيا منذ كم
سنين ؟ ولعل أمثال هذه الكلمات صدرت من بعض من أراد أن لا تنكشف حقيقة رأيه للعوام بأنه
مخالف للكتاب والسنة ، فتوصل إلى ذلك بأن جعل فهم الكتاب والسنة على الوجه الذي هو
مناط الأحكام ، مقصوراً على أهل